رسول الله ﷺ يذكّر المسلمين بأهمّ أصول الإسلام فى آخر حجّة له

فى السنة العاشرة من الهجرة خرج النبى ﷺ للحج ، وكان ذلك يوم السبت الخامس من ذى الحجة ، بعد أن ولى على المدينة أبا دجانة الأنصارى ، وكان معه جمع كبير قُدِّر بتسعين ألفا ، وهو ما لم يعهد له مثيل فى بلاد العرب قبل ذلك العهد .

وفى اليوم الثامن شخص النبى إلى مِنَى فبات بها ، وفى اليوم التاسع منه قصد عرفة وهنالك ألقى على الناس ، وهم يحيطون به ، خطبة جامعة ، ذكر فيها أصولا عامة قام عليها الإسلام لتحفظ عنه فى ذلك الجمع الحاشد ويعمل بها ، لتستقيم جماعتهم على أمتن القواعد ، فإليك ما قاله ﷺ :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيآت أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، واستفتح بالذى هو خير .

« أما بعد ، أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

« أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت [1] ، اللهم فاشهد .

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وإن مآثر الجاهلية

---

(١) هل قد تأتى بمعنى قد فيكون المعنى : ألا قد بلغت .

موضوعة غير السِّدانة والسِّقاية . والعمْد قَوَد [١] وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

« أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك ، مما تحقرون من أعمالكم .

« أيها الناس ، إن النسىء زيادة فى الكفر يُضَل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض ، منها أربعة حُرُمٌ ، ثلاثة متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« أيها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق ، أن لا يوطِئن فرشكم غيركم ، ولا يُدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوانٍ [٢] لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لا مرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت اللهم أشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

---

(١) السدانة خدمة الكعبة والسقاية تدبير الماء ليستقى منه الحجاج ، والقود القصاص ، والقصاص هو أن يفعل بالجانى مثل ما فعل .

(٢) عوان أى أسيرات جمع عانية .

« أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

« أيها الناس ، الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز لوارث وصيته ، ولا تجوز وصيته فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجَر [1] من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

ألقى النبى ﷺ هذه الخطبة والناس سكوت مصغون كأن على رءوسهم الطير ، وقد اشتملت كما يرى القارئون على أصول أولية لم يفه بها خطيب فى بلاد العرب ، وبعضها لم يدر فى خلد أحد قبل الإسلام . فأما التى لم تكن تعرف فى بلاد العرب ، وكان الناس جارين على خلافها ، فمنها تحريم أموالهم ودمائهم عليهم ، وقد كانوا قبل ذلك يعتمدون على الغارات لتحصيل معاشهم من طريق التناهب . وهذا الذى كان اضطرهم لبدعة النسىء [2] استصعابا منهم لتمضية ثلاثة أشهر متوالية بدون غارات ، مما كان إذ ذاك لا يتفق وحالتهم المعيشية . فلما جاء الإسلام حرم عليهم ذلك ، ووجههم إلى الوجهات المشروعة لتحصيل العيش ، فكان منهم الجنود المدربون على القتال الذين احتاج إليهم الإسلام فى الدفاع عن بيضته ، والجيوش الجرارة التى خاض المسلمون غمارها فيما كانت لا تزال تقضى بها طبيعة العمران فى تلك القرون ، ففتحوا ممالك كانوا لا يحلمون بوجودها ، وألفوا منها امبراطورية إسلامية كانت لا تغرب عنها الشمس ، اعتبرت أكبر امبراطورية تسنى

---

(١) الفراش الزوج ، لأن كل واحد من الزوجين يسمى فراشا للآخر . والحجر أى الخيبة والحرمان . والمعنى أن الولد لصاحب الفراش : السيد أو الزوج ، وللزانى الخيبة والحرمان .

(٢) النسىء اسم بمعنى التأخير من نسأ الشىء نسأ بمعنى أخره . والمراد بالنسىء فى الآية تأخيرهم حرمة المحرم لصفر ، ذلك أن عرب الجاهلية كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها على إخوانهم ، لأن معاشهم كان قائما على الغارات . فكانوا يحلون الحرب فى المحرم أحيانا ويحرمونها فى صفر بدلا منه ، وهو تحايل ممقوت لا يرضى به ذو مسكة من عقل .

لأمة أن تؤسسها إلى اليوم ، إذ امتدت من شواطىء المحيط الاطلانطيقى بأسبانيا والبرتغال شرقا إلى بحر الصين غربا ، وتناولت معظم حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى قال مؤرخو الفرنجة إن المسلمين بلغوا فى ثمانين سنة ما لم يبلغه الرومانيون فى ثمانية قرون .

وبسبب جدوبة أرضهم ، وتحريم الإسلام عليهم إغارة بعضهم على بعض طلبا للنهب ، اضطروا للمهاجرة إلى كثير من البلدان التى افتتحوها وحكموها بالعدل الذى لم تحلم به الشعوب المقهورة قبلهم ، واختلطوا بأهلها ، ونشروا بينهم لغتهم بدون إجبار ، ولكن من طريق ميل الشعوب للغة الفاتحين ، حتى تغلبت على لغات تلك الشعوب وأصبحت عربية ، كما يشاهد ذلك بمصر وسورية وجميع سواحل أفريقيا الشمالية والسودان وغيرها .

ولم يكشف العرب بالنزوح إلى البلاد التى افتتحوها ، بل هاجروا طلبا للعيش إلى غيرها مما يعد السفر إليه مخاطرة بالنفس فى ذلك العهد ، كسومترة وجاوة وغيرها بالاقيانوسية . وهذا التوسع فى المهاجرة الذى لم ير مثله لأمة أخرى ، كان سببا فى عدم تلاشى الامبراطورية الإسلامية وبقائها إلى اليوم .

ومنها إعلان قطع كل صلة للعرب بعهد الجاهلية ، حتى ما كان يتعلق منها بالأمور المالية والجنائية والتشريعية ، فمن كان له ربا قرض عند مدين ، أو دم يطالب به خصما له ، أو كان له حق مكتسب فى مكانه شرف ، فلا حق له من ذلك اليوم فى المطالبة به ، لأن كل ذلك جاء وفاقا لعقلية الجاهلية ، وطباقا لأصولها ، فلا يجوز أن يعتد به ، لابتنائه على ضلالات تقليدية ، وجهالات وراثية ، لا يصح أن يقام لها وزن فى عهد الإسلام القائم على العدل المطلق ، والحق الطبيعى الذى لا يتغير . وإن أمة برمتها تقبل هذا الإجراء الضخم الذى لم يحدث له مثيل فى جميع عهود التاريخ ، لهى أمة كانت قد اقتنعت بأن ما انتهت إليه من التطور الجديد هو الحق الذى ليس وراءه مذهب ، وأن ما كانت عليه كان ضلالا محضا لا يصح أن يقام له وزن .

هذه أمور لا يصح أن يكون حظّها من القارىء كحظ الحوادث العادية فحسب ،

فإنها تنطوى على تطورات بسيكولوجية تعتبر من أعظم المعجزات العلمية ؛ ذلك أن أمة كالأمة العربية كانت تعتد بفضائل أسلافها ، وتبالغ فى حفظ اتصالها بهم وبمآثرهم ، إلى حدود التقديس ، تقبل أن تجعل بينها وبينهم حداً فاصلا ، وأن تبدأ حياة جديدة لا ماضى لها . هذا التطور يجب أن ينظر إليه كنتيجة لثورة اعتقادية وصلت إلى أعماق نفسيتها ، كتبت به صفحة جديدة لا فى التطورات الدينية الفجائية فحسب ، ولكن فى البسيكوجيا الاجتماعية أيضا ، ولا نشك فى أنها من أعجب صفحاتها لمجيئها على خلاف ما عهد من الأصول المقررة فى ذلك العلم ، من وجوب التدرج إلى مثل هذه الغايات البعيدة فى آماد طويلة .

ومنها الانقلاب الذريع الذى نوهت به هذه الخطبة فيما يختص بحالة المرأة فى الإسلام . فإن تصريح النبى ﷺ بأن للنساء حقا على الرجال ، وبأن من ذلك أن يعاشرن بالمعروف ، يضاف هذا كله إلى ما سبق تقريره من حقوقهن فى وراثة أزواجهن ، وفى الاستقلال بإدارة أموالهن ، وبوجوب تعلمهن ، وبإمكان أخذ العلم عنهن ، وقبول شهادتهن إلخ إلخ ، مما أدى بعلماء الدين إلى أن يستخرجوا منه إمكان إسناد مهمتى القضاء والإفتاء إليهن ، كل هذا يحسب من الأمور الجلل التى طرأت لا فى الأمة الإسلامية وحدها ، ولكن فى العالم الإنسانى أجمع ، لأن كل هذه الحقوق النسوية لم يكن يحلم بها أحد فضلا عن أن يطالب بها . وقد دل تاريخ العالم على أن المرأة إلى ذلك العهد كانت محرومة من جميع الحقوق ، إلا ما سمحت به الشريعة الرومانية ، وما سمحت به لا يعد إلى جانب ما منحه إياها من الحقوق شيئا يذكر . ناهيك أن الإسلام أباح لها أن تشترط على زوجها شروطا تعويضية فى العقد ، وأن يكون فصم عرى الزوجية بيدها تنفصل عن زوجها فى أى وقت أرادت ، ولا يكون لذلك الزوج أدنى حق فى منعها من ذلك . كل هذه التجديدات فى عهد كالذى شرع فيه الإسلام تعتبر من الأمور التى يجب أن تستوقف النظر .

ومنها مبدأ المساواة بين جميع أفراد النوع البشرى بصرف النظر عن اللغة واللون والجنس ، وجعل مناط التفضيل بين الناس الصفات النفسية من تقوى الله

والعمل الصالح ، وهذا المبدأ لم ينبِس به متكلم قبل الإسلام قط [١] ، لأن الناس كانوا يعتدون بأجناسهم إلى أقصى حد ، حتى كبار الفلاسفة منهم ، ألم يقل أفلاطون : « إنى لأشكر الله على ثلاث : أن خلقنى إنسانا ولم يخلقنى حيوانا ، وأن جعلنى يونانيا ولم يجعلنى من جنس آخر ، وأن أوجدنى فى عهد سقراط » . ولا يخفى على باحث مدقق أن هذا التعصب من أوهام الأجناس، ولا يقوم على أصل طبيعى ، ولا على مبدأ من العدل المطلق . فمجيء الإسلام بنقضه يعتبر وضعا لأساس ركين لأقوم أصل اجتماعى عرفه الناس منذ وجودهم إلى اليوم ، سيكون متى عم الأمم قاطبة مبدأ لإبطال التناحر ، وإقرار السلام بين جميع الأجناس البشرية ، ونشر عاطفة الأخوة الصحيحة بين آحادها كافة .

يقول معترض من المعاصرين : ليس بمجحود ما أتى به الإسلام من حقوق جديدة للمرأة لم تكن تحلم بها قبله ، ولكن وصفهن بأنهن عوان أى أسيرات عند الرجال ، لا يتفق والحماية العظيمة التى تقولون إنه أحاطهن بها ؛ والتصريح للرجال بعضلهن أى بحبسهن والتضييق عليهن وضربهن ، يشجع كثيرا من الرجال على الغض من كرامتهن ، وتحقير شأنهن ، والتوسع فى الترفع عليهن ، مما لا يتفق وما تواضع عليه الناس فى المدنية الراهنة .

نقول إن كلام النبى ﷺ كان موجها للجماعة التى من حقها درء المفاسد حفظا لها من التفكك والتلاشى ، وموضوعه المرأة الخارجة عن حدود الناموس الأدبى العام ، لا المرأة المحافظة على كرامتها وكرامة أسرتها . وقد كان جزاء ما تصاب به المرأة الخليعة فى ذلك العهد عند غير المسلمين أن تلقى فى النار ، أو تعذب حتى تموت صبرا !

ووصفه ﷺ للنساء بأنهن أسيرات عند الرجال ، تقرير للواقع فى ذلك العهد ، لاحالتهن الملازمة لهن ، تحت رعاية الشريعة الإسلامية ، التى خولتهن من الحقوق ما لا تزال نساء القرن العشرين محرومات منه . والواقع فى ذلك العهد أن

---

(١) نبس ينبس تكلم .وأكثر إستعمال هذا الفعل فى النفى ، تقول ما نبس بكلمة

المرأة العربية التى عاشت آمادا طويلة فى ذل واستعباد ، حتى كان تورث بعد موت زوجها وتباع كما تباع الأنعام ، وليس لها أدنى حق حيال زوجها تطالبه به ، كانت لم تتأهل بعد لأن تطالب بحقوقها بنفسها فى الإسلام ، فكانت لا تزال أسيرة للتقاليد الجاهلية إلى أبعد حد ، ناهيك أن المرأة الشرقية حتى فى هذا العصر الذى من مميزاته التمرد على النظم بحق وبغير حق ، لا تفكر فى المطالبة بحقوقها ، وتصبر عمرها الطويل تحت سلطان معاملة قاسية لا تحاول أن تفتكّ منها ، فما ظنك بالمرأة العربية منذ نحو أربعة عشر قرنا ؟

لا جرم أن المرأة بهذا الاعتبار كانت تعتبر إذ ذاك أسيرة فى بيت زوجها ، وأن لخاتم المرسلين محمد ﷺ الحق فى استعطاف زوجها عليها ، وتذكيره بحقوقها ، ما دامت لم تبلغ هى من الرشد إلى درجة المطالبة بحقوقها والدفاع عنها (*) .

★ ★ ★

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء العاشر ، شوال سنة ١٣٦٢ هـ .

obeikandl.com

تحقّق الوحدة العربية
باستسلام القبائل للدولة الإسلامية

بعد أن أتم النبى ﷺ فتح مكة وتدريخه قريشا الوثنية ، وبعد أن أطفأ أكبر ثورة قبيلية فى شخص بنى هوازن وما استنصرت به من القبائل المشايعة لها ، عقب ذلك الفتح ، أدركت القبائل العربية المبعثرة هنا وهناك من جزيرة العرب أنه لا عصم لها من المفاجآت إلا بالاعتصام بالدولة الجديدة التى تأسست فى بلادها . وقد كان الدرس الذى تلقته قريش وهوازن من تلك الدولة ، كافيا فى تلقينها هذه الطريقة المثلى لحفظ وجودها بعيدا عن العطب ، فكثرت وفود القبائل على النبى ﷺ ودخولها فى طاعته ، وخضوعها لما يفرضه عليها من الإتاوات لتدارك حاجات الدولة الأدبية والمادية ، وقد بلغ عددها أربعين وفدا . ونحن نورد أشهرها هنا استيفاء لأركان هذه السيرة :

١ – وفد نصارى نَجْران :

نَجْران بلدة كبيرة على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن تشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، وصل وفدها إلى مسجد المدينة بعد العصر وكان عددهم ستين رجلا ، فقاموا يصلون صلاتهم ، فمنعهم الناس ، فقال ﷺ : دعوهم يصلوا ، فاستقبلوا المشرق وصلوا ، وكان عليهم أردية من الحرير ، وفى أصابعهم خواتم من الذهب .

ثم عرضوا هدية أتوا بها للنبى ﷺ وإذا فيها أبسطة ذات تماثيل ، ومسوح (هى أكسية من شعر) . فقال رسول الله : أما هذه البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما هذه المسوح فإن تعطونيها آخذها . فقالوا نعطيكها .

ثم عرض عليهم النبى ﷺ الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فامتنعوا ، وطلبوا دفع الجزية ، فقبل منهم النبى ذلك ، وكان مقدارها ألف حلة فى صفر وألفا فى رجب ، ومع كل حلة أوقية من الفضة ، وكتب لهم كتابا . فاقترحوا أن يرسل معهم وكيلا عنه ، فأمر أبا عبيدة بن الجراح أن يصحبهم قائلا لهم : هذا أمين هذه

الأمة . فصار يطلق عليه هذا الوصف بين الصحابة .

٢ – وفد ضِمَام بن ثَعْلَبَة :

ووفد عليه ضمام بن ثعلبة فأناخ بعيره فى المسجد ورسول الله جالس بين أصحابه . فنظر إلى الناس وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فدلوه على النبى ﷺ ، فدنا منه وقال له : إنى سائلك فمشدّد عليك فلا تجد على (أى فلا تغضب منى) . فقال له رسول الله : سل ما بدا لك .

– فقال ضمام : يا محمد جاءنا رسولك فذكر أنك تزعم أن الله أرسلك . قال النبى : صدق – فقال ضمام : أنشدك برب من قبلك ورب من بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها ؟ قال النبى : اللهم نعم – قال ضمام : أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال النبى : اللهم نعم – قال ضمام : وأنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهرا ؟ قال النبى : اللهم نعم – قال ضمام : وأنشدك بالله آلله أمرك أن نحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلا ؟ قال النبى : اللهم نعم – قال ضمام : آمنت وصدقت ، ورجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأطاعوه وأسلموا .

٣ – وفد بنى عبد القيس :

كان منازل هذه القبيلة بالبحرين ، وفد منها نفر منهم الجارود وكان على دين عيسى عليه السلام ، فلما أقبلوا سألهم النبى ﷺ قائلا : من القوم ؟ فقالوا من ربيعة . فقال : مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى . فقالوا : مرنا يا رسول الله بأمر نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة .

فقال النبى : آمركم بالإيمان بالله ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم .

فسألوه عن النبيذ ، فقالوا يا رسول الله ، إن أرضنا وخمة لا يصلحنا إلا النبيذ .

قال النبى : فلا تشربوا فى النقير (وهو أصل النخلة ينقر ليتخمر فيه الشراب) .

فقال أحدهم واسمه الأشجّ : يا رسول الله إن أرضنا وخمة وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا فرخص لنا فى مثل هذه ، وأشار إلى يده . فأومأ عليه الصلاة والسلام بكفيه وقال : يا أشج إن رخصت لك فى مثل هذه (أى يدك) شربته فى مثل هذه (أى ملء اليدين مجتمعتين) حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف .

٤ - وفد بنى حنيفة :

هم بنو حنيفة بن لُجَيْم ، وفدوا على النبى ﷺ وكانوا سبعة عشر رجلا فأسلموا ، وكان معهم رجل يدعى مسيلمة تركوه فى رحالهم ليحفظها وكانوا يعظمونه ، وكان قد بلغ رسول الله أنه قال لو جعل لى محمد الأمر من بعده لا تَّبعْته ، فانطلق النبى إليه فى نفر من أصحابه وفى يده جريدة ، حتى وقف أمامه وقال له : إن سألتنى هذه الجريدة ما أعطيتكها .

٥ - وفد بنى طىء :

بنو طىء من أشهر قبائل العرب ، وفد رجال منهم على رسول الله ﷺ ومعهم سيدهم زيد الخيل ، وكان أعظم قومه جودا ، وأحسنهم خلقا ، فلما أقبل على النبى مسلما قال له وهو لا يعرفه : الحمد لله الذى أتى بك من حزنك وسهلك ، وسهل قلبك للإيمان . ثم قبض على يده وسأله : من أنت ؟ فقال : أنا زيد الخيل بن مهلهل ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله . فقال له النبى ﷺ : بل أنت زيد الخير . وعرض الإسلام على من معه فأسلموا . وفى زيد الخيل هذا قال النبى : ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما قيل فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ ما قيل فيه كل ما فيه .

وأجاز النبى ﷺ كل رجل من هذا الوفد خمس أواق من الفضة ، وأجاز زيد الخيل اثنتى عشرة .

ولما توفى رسول الله وارتدت قبائل برمتها ومنها بنو حنيفة ، ثبت زيد الخيل على إيمانه .

٦ - وفد عدى بن حاتم الطائى :

كان عدى بن حاتم الطائى قد تنصر فى الجاهلية ، فلما سمع بتدويخ النبى ﷺ لقبائل العرب وخشى على نفسه ، خرج بأهله وماله إلى الشام مهاجرا خوفا من بطشه . وكان له أخت سبيت فيمن سبى من نساء العرب ، فلما عرف رسول الله أنها ابنة حاتم الطائى المشهور بالكرم والمآثر ، أكرمها وكساها وحملها على بعير ، وأعطاها نفقة للسفر إلى أخيها بالشام . فلما لحقت به نصحته أن يلحق بالنبى ﷺ قائله له : إن كان محمد ملكا فأنت أنت لا يصيبك منه أذى ، وإن كان نبيا فللسابق إليه فضيلة . فخرج عدى قاصدا رسول الله ، فلما التقى به حدثت بينهما مباحثة دينية ، ثم قال له النبى : يا عدى لعل المانع لك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجة أهله وفقرهم ، فو الله ليوشكنّ المال أن يفيض حتى لا يوجد من يأخذه ؛ ولعلك إنما يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فو الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية (وهى قرية قرب الكوفة) على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف شرا ؛ ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل وقد فتحت عليهم . فأسلم عدى وحسن إسلامه .

٧ - وفد عروة المرادى :

وفد عروة على رسول الله ﷺ ، وكان قد أصيب قومه بنو مراد من بنى همدان فى وقعة بشر عظيم . فلما قابل النبى قال له : هل أساءك ما أصاب قومك ؟ قال يا رسول الله من ذا يصيب قومه ما أصاب قومى ولا يسوءه ؟ فقال له النبى : أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا . ثم ولاه على قومه وأرسل معه خالد ابن سعيد بن العاصى عاملا على جمع الزكاة .

٨ - وفد بنى زبيد :

وفدوا على النبى ﷺ ومعهم عمرو بن معد يكرب ، وهو فارس العرب

المشهور بالشجاعة ، فأسلم .

٩ - وفد بنى كندة :

هى من قبائل اليمن ، وفد منها ثمانون رجلا على رسول الله ﷺ وقيل ستون ، فيهم الأشعث بن قيس . فلما دخلوا على النبى قالوا له : إننا خبأنا لك خبأ فما هو ؟ وكانوا قد خبأوا له عين جرادة فى إناء سمن . فقال لهم : إنما يفعل ذلك بالكاهن والكاهن والكهانة فى النار . ثم قال بعد كلام : إن الله قد أنزل علىَّ كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فقالوا أسمعنا منه ، فتلا عليهم : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ، إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ، رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ (١) ، ثم سكت ودموعه تجرى على لحيته ، فقالوا : إنا نراك تبكى أمن مخافة من أرسلك ؟ قال النبى ﷺ : خشيتى منه أبكتنى ، بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت ، ثم تلا : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (٢) الآية . ثم قال لهم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى . قال . فما بال هذا الحرير (وكان عليهم جباب مسجوفة بالحرير) ؟ فعند ذلك شقه القوم وألقوه .

١٠ - وفد بنى أزْد شَنُوءة :

هم من قبائل اليمن أقبلوا تحت قيادة رئيسهم صُرَد بن عبد الله الأزدى فأسلموا جميعا ، وأمر رئيسهم أن يغزو بهم من كان يليه من أهل الشرك .

١١ - وفد رسول ملوك حمير :

ذلك أن الحارث بن كُلَال والنعمان ومَعَافِر وهَمْدان كتبوا إلى النبى ﷺ بإسلامهم ، فرد عليهم بكتاب أوصاهم فيه برسله الذين أرسلهم إليهم ، وهم معاذ ابن جبل ورجاله معه لتحصيل الزكاة والجزية ، ثم ذكر لهم أن الزكاة لا تحل لمحمد

---

(١) سورة الصافات ، الآيات (١ - ٥) .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية (٨٦) .

ولا لآل محمد ، وإنما هى للفقراء وابن السبيل .

١٢ – وفد رسول فروة بن عمرو الجذامى :

أوفد فروة بن عمرو من معان ، وكان عاملا للرومان على ما حولها من أرض الشام ، رسولا إلى النبى ﷺ بهدية هى بغلة وحمار وثياب وقباء مرصع بالذهب ، فقبلها وأعطى الرسول اثنى عشر أوقية من الفضة . فلما بلغ الرومان أمره قبضوا عليه وحبسوه ثم قتلوه .

١٣ – وفد بنى الحارث بن كعب :

وفدوا على النبى ﷺ وأسلموا .

١٤ – وفد رفاعة بن زيد الخزاعى :

وفد رفاعةهذا على النبى ﷺ ، فأرسل معه كتابا إلى قومه يدعوهم فيه إلى الإسلام . فأجاب القوم بالطاعة وأسلموا .

١٥ – وفد بنى همدان باليمن :

تقدم منهم مالك بن نمط ومدح النبى ﷺ ، فأمّره على من أسلم من قومه . وحدث أنه لما بلغه إسلامهم قبل ذلك خرَّ ساجدا ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان » . وجاء فى الأخبار أنه قال : نعم الحى همدان ، ما أسرعها إلى النصر ، وأصبرها على الجهد ، وفيهم أبدال ، وفيهم أوتاد الإسلام .

١٦ – وفد بنى تجيب من اليمن :

وفد على النبى ﷺ منها ثلاثة عشر رجلا منهم معهم زكاة أموالهم . فقال لهم رسول الله : ردوها على فقرائكم . فقالوا ما قدَمنا إلا بما فضل عن فقرائنا ، فدعا لهم وأجازهم .

١٧ – وفد بنى ثعلبة من اليمن :

وفدوا على النبى ﷺ وأسلموا وأبلغوه إسلام من خلفوه من قومهم ، فدعا لهم وأعطى كل رجل منهم خمس أوقيات من الفضة .

١٨ – وفد بنى سعد من اليمن :

قال النعمان : قدمت على رسول الله ﷺ فى نفر من قومى وقد أوطأ البلاد ، والناس صنفان : داخل فى الإسلام رغبة ، أو خائف من السيف ، فدخلنا المسجد وكان المسلمون يصلون على جنازة فانتظرنا حتى انتهوا . فأقبل علينا النبى وسألنا : أمسلمون أنتم ؟ قلنا نعم . قال هم صليتم على أخيكم ؟ قلنا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك . فقال أينما أسلمتم فأنتم مسلمون . ثم أجازهم وانصرفوا .

١٩ – وفد بنى فزارة :

وفدوا على النبى ﷺ مع رئيسهم خارجة بن حصن ، فسألهم رسول الله عن حالهم ، فقال خارجة : يا رسول الله أسنت بلادنا ، وهلكت مواشينا ، فادع لنا ربك يغيثنا . فصعد المنبر ودعا لهم ، وانصرفوا مقرين بالإسلام .

٢٠ – وفد بنى أسد :

وفدوا على رسول الله وفيهم ضرار بن الأزور فأسلموا ، وسألوه عما كانوا يفعلونه فى الجاهلية من العيافة (وهى زجر الطير والتفاؤل بطيرانها يمينا أو يسارا) ، والكهانة وضرب الحصباء ، فنهاهم عن ذلك .

٢١ – وفد بنى أسد :

وفدوا على النبى وأسلموا ، وقالوا : يا رسول الله لم ترسل إلينا داعيا ولم نقاتلك كما فعل العرب ، فأنزل الله عليه قوله : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] .

٢٢ – وفد بنى عذرة :

هم من اليمن ، وفد منهم اثنا عشر رجلا على النبى ﷺ وحيوه بتحية الجاهلية

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (١٧) .

وهى : عم صباحا . فقال رسول الله : مرحبا بكم وأهلا . ثم قال : فما يمنعكم من تحية الإسلام ؟ قالوا يا محمد كنا على ما كان عليه آباؤنا فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا ، فالإمَ تدعو ؟ فقال لهم رسول الله : أدعو إلى عبادة الله وحده ، وإلى أنى رسوله إلى الناس كافة . فقال متكلمهم : فما وراء ذلك ؟ فقال النبى : الصلوات ، وسرد عليهم بقية الفرائض . فأسلموا . فقالوا : يا رسول الله فينا امرأة كاهنة أفنسألها عن أمورنا ؟ فقال لهم : لا تسألوها عن شيء .

٢٣ - وفد بنى بَلىّ :

هم حى من قضاعة باليمن ، وفد جمع منهم على رسول الله ﷺ فأسلموا . وقال له شيخهم أبو الضبيب : يا رسول الله إن لى رغبة فى إضافة الناس فهل لى فى ذلك أجر ؟ فقال ﷺ : نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة . قال يا رسول الله وما وقت الضيافة ؟ قال ثلاثة أيام . قال فما بعد ذلك ؟ قال فصدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك . قال يا رسول الله والضالة من الغنم أجدها فى الفلاة ؟ قال : هى لك أو لأخيك أو للذئب . قال : فالبعير ؟ قال : مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه .

٢٤ - وفد بنى مرة :

وفد عليه منهم ثلاثة عشر رجلا مقدمين الطاعة ، فلبثوا أياما ثم ودعوه للانصراف ، فأمر لكل منهم بعشر أواق من الفضة ، ولرئيسهم باثنتى عشرة أوقية .

٢٥ - وفد بنى خولان :

هى قبيلة يمنية ، وفد منها عشرة رجال مصدقين برسالة النبى ﷺ ، وموفدين من قومهم . فعلمهم رسول الله الفرائض وأمرهم بالوفاء بالعهد وحسن الجوار وأن لا يظلموا أحدا . ثم أجازهم وانصرفوا .

٢٦ - وفد بنى محارب :

كان هؤلاء القوم أشد الناس على النبى ﷺ ، فلما مثلوا بين يديه نظر إلى رجل منهم وقال له : قد رأيتك . فقال الرجل : نعم ، وأنت فى سوق عكاظ تعرض

الإسلام على الناس ، فكلمتك بأقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد ، فأحمد الله الآن على أن جاء بى حتى صدقتك . ثم قال يا رسول الله استغفر لى مراجعتى إياك . فقال النبى ﷺ : إن الإسلام يجب ما قبله من الكفر (أى يزيله) ، ومسح وجهه ، واسمه خزيمة بن سواد . ثم أجازَ الوفد وانصرفوا .

٢٧ - وفد صداء :

هم حى من عرب اليمن ، وفد على النبى ﷺ منهم رجل ليكلمه فى رد بعث عسكرى كان أعده لغزوهم ، وتعهد بأن قومه على رأيه فى الدخول فى الإسلام ، فرد النبى ﷺ جنوده . ووصل من صداء عشرة رجال فآمنوا ورجعوا إلى قومهم ففشا الإسلام فيهم .

٢٨ - وفد غسان :

وفد على النبى ﷺ من بنى غسان ثلاثة رجال ، فآمنوا شاكين فى إسلام قومهم ، فصدق ظنهم فكتموا إسلامهم .

٢٩ - وفد بنى سلامان :

وفد منهم على النبى ﷺ سبعة رجال فأسلموا وضمنوا إسلام من وراءهم ، فقبل منهم وأجازهم .

٣٠ - وفد بنى عبس :

وفد عليه منهم ثلاثة يسألونه أصحيح ما قاله لهم معلموهم : لا إسلام لمن لا هجرة له ، وإن لنا أموالا ومواشى ، فإن صح هذا بعناها وهاجرنا ؟ فنفى رسول الله هذا القول .

٣١ - وفد بنى مزينة :

وفد منهم على النبى أربعمائة رجل فآمنوا به ، ولما أرادوا الانصراف طلبوا زاداً يكفيهم الحاجة فى الطريق ، فأمر عمر فزودهم تمرا .

٣٢ - وفد بنى أشعر بن ود :

قدم أبو موسى الأشعرى فى رجال من قومه فلقوا النبى ﷺ فأسلموا ، فقال

رسول الله : الأشعريون كصرة فيها مسك . وروى عنه أنه قال : جاء أهل اليمن وهم أرق أفئدة ، وألين قلوبا ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية .

٣٣ – وفد بنى دوس :

بنو دوس ينتهى نسبهم إلى بنى الأزد وهم من اليمن ، أول من قدم منهم الطفيل ابن عمرو الدوسى قبل الهجرة فعرض النبى ﷺ الإسلام عليه فأسلم . قال الطفيل فقلت يا رسول الله إنى امرؤ مطاع فى قومى وإنى راجع إليهم فعارض عليهم الإسلام . فلما ذهبت إليهم اتبعنى بعضهم وأبى أكثرهم ، فعدت إلى النبى فشكوت إليه أمرهم . فقال : اللهم أهد دوسا وائت بهم ، وأمرنى أن أرجع إليهم وأن أرفق بهم ، فرجعت إليهم أدعوهم حتى هاجر النبى فعدت إليه بأربعمائة منهم ، ولم أزل مع النبى حتى فتح مكة ، فطلبت إليه أن يرسلنى إلى صنم دوس لأحرقه فبعثنى . ثم لازمت النبى ﷺ حتى مات .

٣٢ – وفد بهراء :

هى قبيلة من قضاعة باليمن ، وفد منها ثلاثة عشر رجلا أسلموا وعادوا إلى بلادهم .

٣٣ – وفد بنى غامد :

هى قبيلة باليمن أيضا وفد منهم عشرة فأسلموا ، ثم أجازهم وانصرفوا .

٣٤ – وفد بنى الأزد :

هم سبعة رجال من اليمن أسلموا وعادوا إلى بلادهم يدعون قومهم .

٣٥ – وفد بنى المنتفق :

قدم على رسول الله جماعة منهم فأسلموا وعادوا لهداية قومهم .

٣٦ – وفد النخَع :

وفد منهم مائتا رجل مقرّين بالإسلام ، وهم آخر من وفد على النبى ﷺ .

نقول : المتأمل فى توارد القبائل من كل صوب على جماعة المسلمين وإعلان انضمامهم إليهم ، يشهد منظرا رائعا من مناظر التوحد الاجتماعى بسرعة لم يعهد لها شبيه فى تاريخ الجماعات البشرية . لأن أدوار التوحد والاندماج الطبيعية لا تحدث إلا وبين الدور والدور الذى يليه فترة طولة تتخللها حوادث موجبة للتوحد ؛ ولكن الأمر الذى نحن بصدده يجرى على غير السنة الطبيعية ، وبسرعة تكاد لا تصدق . فإن قال قائل : إن الذى دعا إلى هذه السرعة خشية القبائل من بطش المسلمين بهم ، قلنا إن صح هذا على القبائل المجاورة لمكة والمدينة ، فلا يصح على القبائل التى على مسافات شاسعة منهما ، كالتى تسكن اليمن والبحرين وغيرهما .

والذى يزيد هذا الأمر غرابة أن المسلمين لم يصدر منهم عسف بالذين لم يأتوهم طائعين من تلقاء أنفسهم يحملهم على المبادرة بالانضمام إليهم ، فلابد من أن يكون لهذه الظاهرة الاجتماعية باعث نفسانى فى تلك القبائل أشعرها بانقضاء عهد التفرق ، وبأن حياة جديدة قد آذنت بالحدوث لتقود مجموعها إلى وجهة واحدة على غرار سائر الأمم ، مما سنتتبع عوامله فى حالة هذه القبائل حتى بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الأول ، المحرم سنة ١٣٦٣ هـ .

مرض رسول الله ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

فى أوائل صفر من السنة الحادية عشرة اعترت رسول الله ﷺ وَعْكة وكان فى بيت زوجته ميمونة ، وبقى مريضاً ثلاثة عشر يوما لم يبطل عادته فى التنقل إلى بيوت زوجاته ، ولكن لما اشتدت عليه الحمى استأذن منهن أن يمرَّض فى بيت عائشة ، فأذنَّ له . ولما تفاقمت درجة حرارته الجثمانية أمر أن يصب على جسده الماء تلطيفاً لشدتها ، فوضع فى مخضب وصب عليه الماء صبا . وكان أبو بكر يصلى بالناس نيابة عنه بأمرٍ منه . ولما استشرى المرض عليه اجتمع الأنصار بالمسجد ، ودخل عليه عمه العباس وأخبره بقلقهم عليه . فخرج عليه الصلاة والسلام متوكئاً على علىِّ بن أبى طالب معصوب الرأس ، وسار العباس أمامهما وتقدم النبى يخط برجليه ضعفاً حتى جلس فى أسفل مرقاة المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحقٌ بربى ، وأنتم لاحقون بى ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) ؛ وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢) ؛ وأوصيكم بالأنصار خيراً ، فإنهم الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم فى الثمار ، ألم يوسعوا لكم فى الديار ، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى ليحكم بين رجلين ، فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرط لكم ،

---

(١) سورة العصر .

(٢) سورة محمد ، الآية (٢٢) .

وأنتم لاحقون بى ، ألا فإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرِدَه على غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى » .

وبينما المسلمون فى صلاة الفجر من يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول وراء أبى بكر رضى الله عنه ، إذا برسول الله ﷺ قد كشف سجف حجرة عائشة ، فنظر إليهم وهم صفوف يصلون فتبسم . فلما رآه أبو بكر ظن أنه يريد أن يؤم المسلمين فرجع القهقرى إلى الصف الأول ، وكاد المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحا برسول الله ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى لحقت روحه الطيبة الزكية بعالمها مع الرفيق الأعلى . وكان ذلك يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة (٨ من يونيو سنة ٦٣٢) ، وعمره ثلاث وستون سنة قمرية وثلاثة أيام ، وإحدى وستون سنة شمسية وأربعة وثمانون يوما .

وكان أبو بكر فى تلك الساعة غائباً ، فلما رجع وأُخبر بما حدث كشف عن وجه رسول الله وجثا على ركبتيه يقبله وهو يقول : « يا رسول الله ما أطيبك حياً وميتاً ، بأبى أنت وأمى لا يجمع الله عليك موتتين » .

ثم خرج إلى الناس وهم فى حال مقيم مقعد ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ألا من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [١] ، وقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [٢] .

---

(١) سورة الزمر ، الآية (٣٠) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٤٤) .

ومكث رسول الله ﷺ فى بيته يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الأربعاء ، حتى أتم المسلمون تعيين خليفة له ، ثم غسله على بن أبى طالب وساعده فى ذلك عمه العباس وابناه الفضل وقثم ، وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله . وكفّن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة .

ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره فى بيته ، ودخل الناس عليه أرسالا متتابعين ، يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ، ثم حفر له لحد فى حجرة عائشة حيث توفى ، وأنزله القبر على والعباس وولداه الفضل وقثم ، ورش قبره بلال بالماء . ورفع قبره عن الأرض شبراً .

شمائله صلى الله عليه وسلم :

كان النبى ﷺ أجمل الناس وجهاً ، نيِّر اللون ، شديد سواد الحدقة مع سعة فيها ، واسع العينين فى حسن ، فى بياضها قليل حمرة ، كثير شعر الأجفان ، مشرق الوجه ، دقيق الحاجبين فى طول ، مرتفع قصبة الأنف مع احديداب يسير فيها ، مفرج بين الثنايا والرباعيات من الأسنان ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية تملأ صدره ، سواء البطن ، عظيم الصدر والمنكبين ، ضخم العظام ، ضخم العضدين والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور المتجرد ، دقيق شعر الصدر والبطن ، ربعة القد ، ليس بالطويل المفرط الطول ، ولا بالقصير المتناهى فى القصر ، رَجْل الشعر ، إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام ، وإذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه ، أحسن الناس عنقاً ، ليس بكثير اللحم ، ولا صغير الذقن ، متماسك البدن .

أما ما كان عليه ﷺ من نظافة الجسم ، وطيب العرف ، والتنزه عن الأقذار ، فممّا لم يجاره فى ذلك كله أحد .

أما كبر عقله ، وذكاء قلبه ، وقوة مشاعره ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فقد كان فى ذلك كله بالمكان الأرفع .

أما كلامه وبيانه ، فكان بحيث لا يضارعه إنسان غيره ، أوتى جوامع الكلم ،

وقد ملأت أحاديثه الأسفار ، وأكثر العلماء من جمعها وشرحها وبيان أسرار البلاغة فيها .

وأما أخلاقه وآدابه فناهيك أن الله قال فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] ، وقد دل تاريخه كله على ذلك ، فكان أوسع الناس صدراً ، وأرحبهم نفساً ، وأعفهم لسانا ، وأرعاهم للصحبة ، وقد دونت عنه فى ذلك أسفار كثيرة .

أما جوده وشجاعته وحياؤه وحسن معاشرته ، وقوة احتماله وشفقته ورحمته وتواضعه وعدله ووقاره وزهده وتقواه ، فقد كان من كل ذلك مضرب الأمثال ، وهذا كله من أخص مميزات النبوة فى رأينا . فإن الناس العاديين قل من يبلغ المثل الأعلى منهم فى خصلتين أو ثلاث من هذه الخصال ، فبلوغ هذه الدرجة السامية فى جميعها ، مما لم يشاهد فى واحد من جميع أفراد النوع البشرى فى جميع أدوار التاريخ . وتوافرها فى محمد ﷺ قد دل عليه التواتر فلا يمكن التشكك فيه ، وهذا وحده دليل قاطع على صلته الوثيقة بالعالم العلوى بحيث لم تتمكن القوى البشرية فيه أن تطغى عليه فى ناحية من نواحيه الأدبية ؛ وهو مثال رائع لمن يعنى بأمر التربية النفسية ، ويعرف مبلغ قصور البشرية عن قبول الانقياد للناموس الأدبى انقياداً مطلقاً ، حتى مع إلمامها بمضار الجنوح إلى ما يخالفه . وقد أجهد المربون والمصلحون أنفسهم فى الوصول إلى أسلوب يحصل لهم أقصى ما يمكن من تقويم الشخصية الإنسانية ، فعجزوا عن ذلك ، ونسبوا خيبتهم فى كثير مما يحاولونه إلى الحالات الجسدية ، والأمزجة الفطرية ، والعيوب الجِبلِّيَّة الموروثة ، وأجمعوا على أن بلوغ الإنسانية درجة الكمال – إن كان كتب لها أن تحصله – فلن يكون ذلك ثمرة العلم ، لأن العلم قد قام بالواجب عليه ، ولكن ثمرة التطورات المتعاقبة ، وهى تتطلب الآماد الطويلة ، والأحقاب المتوالية . وقد تحدث قهقرى مفاجئة بسبب من الأسباب ، فتقف سنة التطور آماداً أخرى .

ومن المربين من قالوا إن نيل الإنسان للكمال الأدبى غير متيسر فى هذا العالم ، لشدة غلبة الحاجات الجسدية ، ومقتضيات الجبلة البهيمية التى لا تزال متغلبة على

---

(١) سورة القلم ، الآية (٤) .

أهواء الإنسان ، وبحسْب المصلحين أن يستطيعوا التغلب على ما يمكن التغلب عليه بالاستعانة بالمبدأ النفعى . أما طلب الكمال لذاته ، فعندهم أنه سيبقى من حظ الأفذاذ الذين يختارهم موجد الكون ليكونوا مثلا عليا لسواهم من بقية الناس .

إن من يتأمل فى أقوال محمد ﷺ وهو يجود بنفسه – وهذه حالة يُفضَى فيها بين الإنسان وأهول ساعة قُدرت له فى حياته – يتحقق أنها صادرة عن قلب نبى ، لا عن قلب رجل عادىّ . فإن فى تلك الساعة التى يرى الإنسان نفسه على وشْك ترك أهله وذويه ، وكل ما كان يملأ صدره ، ويستوعب فكره من لذاته وعاداته ، يشغله من أمر نفسه شاغل هائل ؛ فإن فكر فى شىء يخرج عن دائرة خصوصياته ، فلا يمكن أن يكون ذلك الشىء مما كان يخادع فيه الناس ليتسلط على عقولهم ، ويسخرهم لسلطانه ، بل شوهد أن بعض الذين كانوا من هذا القبيل ، اعترفوا فى تلك الساعة الرهيبة بجريمتهم ، وتبرأوا من ضلالتهم . والذى رآه الناس من محمد خلاف ما عهده الناس فى أولئك . فإنه لما تحقق أنه لا محالة ميت ، قال للذين احتفّوا به من صحبه : « أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبى فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؟ » .

ثم أوصاهم بالحق والصبر وعدم الفساد فى الأرض ، وبالتحابّ والتواصل ، تالياً عليهم قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) . إن رجلا يذكر الحق والصبر وهو يرى الموت بعينيه ، ويذكر الجماعة ، وينهى عن الفساد فى الأرض ، لهو رجل خُلق روحا وجسداً لأداء مهمة عالية قد استوعبت شعوره كله ، ولم تزايله حتى فى تلك الآونة التى يذهل الإنسان فيها عن نفسه وبنيه وكل ما يملك (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة محمد ، الآية (٢٢) .

(٢) سورة العصر .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الثانى ، صفر سنة ١٣٦٣ هـ .